١٧ ـ المكتفي بالله: ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م.

لم تكد تنتعش الدولة العباسية في عهد المعتمد بالله وأخيه طلحة الناصر ـ الموفق ـ الذي استبد بشؤون الحكم بين ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م، وابنه المعتضد بالله، حتى بدأت ظواهر الضعف تظهر بظهور المنافسات بين ذوي النفوذ فيها أمثال وزيره القاسم بن وهب وبن بدر ـ قائد جيش المعتضد بالله المستولى على أمره، المطاع في خدمه وغلمانه ـ فتركت أثراً سيئاً في أحوال الخلافة.

شجعت أوضاع الخلافة القرامطة على الفساد، فعاثوا تخريباً في الشام والبحرين والعراق وطريق مكة. وقد انتشروا بزعامة بن زكرويه الملقب بـ«الشيخ» حول بغداد والبصرة، واشتد خطرهم، وكثر فسادهم، حتى أنهم أحرقوا مسجد الرصافة.

كما اشتد خطر القرامطة في الشام بعدما أنزلوا الهزيمة بقوات الطولونيين. وتزعم القرامطة بالشام الحسين بن زكرويه ـ أخو يحيى ـ، فأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آية له، فلقب بـ«ذي الشامة» وسُمي بـ«أمير المؤمنين» بين سنتي ٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٣ م. ولم يسلم من يده صبيان المكاتب لكثرة ما ارتكب من أعمال قتل. فما كان من أهل الشام إلا أن رفعوا شكواهم ضده إلى الخليفة المكتفي بالله الذي عاجل بالتوجه إلى الشام عن طريق الموصل على رأس قوة من رجاله الأشداء الذين طاردوا أبا شامة حتى قبضوا عليه سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م مع عدد كبير من رجاله[١٦].

عندها هب والد يحيى ذي الشامة ـ وهو زكرويه ـ لإخلاء ابنه وفك أسره. فجمع زكرويه ـ رأس الفتنة ـ طوائف من أعراب البادية، وأغار بهم على «بصرى» و«أذرعات» بالشام، فارتكب كثيراً من أعمال العنف. وفي يوم عيد النحر ـ الأضحى ـ من سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م، أغار زكرويه ورجاله على الكوفة، عند انصراف الناس من صلاة العيد، فنهبوا وقتلوا كثيراً.

وأغار القرامطة أيضاً سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م على قوافل الحجاج الخراسانيين والعراقيين العائدين من مكة، فنهبوا أموالهم وأقواتهم وثيابهم[١٧].

---

(١٦) تاريخ الطبري ١٠ / ٩٩. ومروج الذهب جـ ٤، ٤ / ١٩٠.

(١٧) تاريخ الطبري ١٠ / ١٣٠ ـ ١٣٣. والكامل في التاريخ جـ ٦ / ١١٥

أبدى أهل بغداد استياءهم من هذه الأعمال، فأرسلت الجيوش العباسية لمحاربة القرامطة، فتمكنت، بعد قتال طويل، من قتل زعيمهم زكرويه سنة ٢٩ هـ/ ٩٠٧ م وفرّ رجاله في أكثر من اتجاه[١٨].

أخذت العلاقات العباسية ـ البيزنطية بين الدولتين طابع المسالمة حيناً لعداء أحياناً في عهد المكتفي بالله.

ففي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م وصلت رسل أمبراطور بيزنطية يسألون الخليفة عباسي المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا. فتم الفداء نة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م[١٩]. وكانت جملة من فودي من المسلمين نحو ١٢٠٠ سير. . .

وكما ذكرنا أعلاه، لم تدم هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين، إذ توجه جيش

إسلامي سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م من طرسوس لمهاجمة إنطاكية التي كانت تعد من أهم الثغور البيزنطية البحرية. فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر عدد كبير من أهلها كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين.

وتمت مفاداة ثانية في عهد المكتفي بالله سنة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م، فبلغ عدد من فودي به من المسلمين ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء[٢٠].

وتوفي المكتفي بالله في ذي الحجة سنة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م، فخلفه أخوه المقتدر بالله.

---

(١٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١١٦.

(١٩) الكامل في التاريخ ٦ / ١١١

(٢٠) تاريخ الطبري ١٠ / ١٣٨ والكامل في التاريخ جـ ٦ / ١٢٠.

١٨ ـ المقتدر بالله: ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م.

اختير المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله، خليفة وهو في الثالثة عشر من عمره. وبالرغم مما وصفه به ابن طباطبا من أنه كان[٢١] «سمحاً كريماً كثير الإنفاق»، فإنه بقي مغلوباً على أمره طوال مدة خلافته، وحتى أنه خلع مرتين. وفي ذلك يقول ابن طباطبا أيضاً[٢٢] «وأعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قتل».

ويبدو أن مقاليد الأمور كانت بيد أمه صاحبة النفوذ القوي، التي كانت تسمى «السيدة». والتي كانت إذا غضبت من أحد الوزراء فإن مصيره كان العزل. وبلغ بها الإستهتار أن عينت قهرمانتها «تومال» على رأس ديوان المظالم. الأمر الذي أدى إلى استخفاف العامة بالدولة.

وتفشت الرشوة في عهد المقتدر، حتى صارت الوزارة تؤخذ بالرشوة، بعدما تدخل، في أمر تعيين الوزراء، الخدم والحاشية والنساء، فتقلدها بعضهم مرتين وثلاثاً. ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى مدة طويلة في الوزارة لأن بقاءه لا يتوقف على صلاحيته للعمل بقدر ما يتوقف على رضاء أم الخليفة وقهر مانتها وخدم الدار الذين لا همّ لهم سوى الحصول على المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة.

وازداد خطر القرامطة على الدولة العباسية في عهد المقتدر بالله، فعاثوا فساداً ـ تخريباً ونهباً ـ في البلاد.

ـ ففي سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م غزا قرامطة البحرين البصرة بزعامة أبي طاهر سليمان الجنابي[٢٣]، وبعدما دخلوها، نهبوا وقتلوا كثيراً من أهلها. ثم تركوها ليتجهوا إلى طريق الحجاج، فأوقعوا بقافلة منهم، وتركوا معظم الحجاج ليموتوا جوعاً وعطشاً بعد أن أخذوا الجمال والأموال.

ـ وفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م. سار أبو طاهر الجنابي على رأس جماعة من أصحابه القرامطة نحو الكوفة، فدخلوها وأنزلوا الهزيمة بجيش الخلافة العباسية.

---

(٢١) الفخري في الأداب السلطانية ٢٦٠.

(٢٢) المرجع السابق ٢٦٢.

(٢٣) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ١٧٥. وابن كثير، أبو الفداء الحافظ. البداية والنهاية ١٤٧/١١، طبعة ١٩٦٦.

ثم اتجهوا إلى الأنبار، ومنها إلى أرض الجزيرة، وهم ينشرون القتل والخراب. في كل مكان تصل إليه أقدامهم، لأنهم ينزلون الهزيمة بجيش الخليفة، كلما وصل إليهم[٢٤].

ـ وفي سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م غزا أبو طاهر بجنده القرامطة مكة المكرمة[٢٥]. فاستباح الحرم، وقتل الحجاج في المسجد، وفي البيت نفسه. كما قلع الحجر الأسود وخلع كسوة الكعبة، وقتل جماعة من الأشراف، ثم ألقى بجثثهم في بئر زمزم. وهكذا لم يرد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد رجاء وتهديد من جانب المهدي عبيدالله العلوي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا.

وكان من الطبيعي أن يشتد خطر البيزنطيين على الدولة العباسية، فأغاروا سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م على ثغور المسلمين في الجزيرة. ودخلوا إلى حصن منصور وسبوا من فيه دون أن يجدوا من يصدهم.

وفي سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م وصل رسولان من بيزنطية إلى بغداد يسألان المقتدر بالله طلب المهادنة والفداء، فأجابهم الخليفة إلى طلبهم[٢٦].

ولكن تلك الهدنة لم تدم طويلاً لأن البيزنطيين كتبوا سنة ٣١٣ هـ/٩٢٥ م إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرونهم بحمل الخراج إليهم، وإلا تعرضوا لهجوم البيزنطيين. وفعلاً، نفذوا تهديدهم بغزو «ملطية» سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦ م وتخريبها دون أن يهب أحد لنجدة أهلها[٢٧].

وهاجم البيزنطيين في سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦ م مدينة «دبيل» في أرمينيا واقتحموها بعد قتال بسيط مع حاميتها. وفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م ظفر البيزنطيون بسرية من المسلمين خرجت من «طرسوس»[٢٨] إلى بلادهم فأبادوها عن بكرة أبيها.

وخلع المقتدر بالله عن الخلافة وبويع بها عبدالله بن المعتز. فمكث يوماً واحداً في الخلافة لأن المقتدر بالله عاد وانتصر عليه فأخذه وقتله. ولم يعد عبدالله ابن المعتز من الخلفاء لقصر مدة ولايته[٢٩]. ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على الخليفة سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م، وفي سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م كذلك. وقد انتهى النفور بينهما أخيراً إلى قتال ذهب ضحيته المقتدر بالله وقطع رأسه وحمله إلى مؤنس المظفر في الوقت الذي تركت فيه جثة الخليفة مرمية على قارعة الطريق، ثم بويع بالخلافة بعده أخوه القاهر بالله.

(٢٤) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢٥) المرجع السابق ٦ / ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢٦) الكامل في التاريخ ٦ / ١٥٨.
(٢٧) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٥.
(٢٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٩ / ١٩٠.
(٢٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٠٠ ـ ٢٠٣.